جليل القيسي

احلام الفارس الحزين دونكي خوتا

ان على المنطق ان يتسع ليشمل اللامنطقي
البروفيسور الفيزيائي ف . موريسون

أعتاد (م) ان يخرج مرة ، او مرتين في الاسبوع في ايام الربيع الى ظاهر البلدة ، ومعه رواية او مسرحية ، ويتجه بامتداد الطريق الرئيسي الى قرية صغيرة فيها مجموعة بيوت طينية محاطة باشجار التوت، والجوز . في تلك القرية الصغيرة ، وفي مشاهدة التلال والوديان الخضراء ، والزهور ، والنباتات البرية ، كان م يحس بروح الربيع . هذا الربيع الفلاشي الذي يأتي مثل سقوط نيزك .. وفي القرية وبعد ان يحتسي ملء طاسة من اللبن البارد ، يستلقي ويروح في غفوة قصيرة . وعندما يفيق يبدأ بقراءة مئة صفحة من الكتاب الذي يحمله معه . ومع حلول المساء يتجه الى الشارع ويبارح القرية بأحدى سيارات المصلحة ، او يستمر في المشي ..

ذات مساء ، وبعد ان انهى قراءة الصفحات المئة الاخيرة من رواية دونكي خوتا ، ترك القرية مشيا ، وظل لمسافة طويلة يفكر باحزان ، واحلام ، وسقطات الفارس النبيل دونكي خوتا .. وحتى عندما كان يضحك لبعض مغامراته ، كانت الدموع تنحدر من عينيه .. قال في نفسه :

« مسكين ! حتى احلامه كانت معارك .. ترى لماذا ؟ وكيف تأتي لهذا المعذب فكرة اعادة العدل الى الارض .؟ من اين كان يستمد هذا الحالم انهزال الجسد كل تلك الارادة الفولاذية ، والانضباط النفسي الصارم في المواقف اللامعقولة التي كان يقحم نفسه فيها ، او تلك التي كان يقحم فيها رغما عنه ؟ »

كان م يتكلم مع نفسه وهو يسترجع الصور التخطيطية في صفحات الكتاب لوجه دونكي خوتا المرهق النحيف ، ولرقبته الهزيلة ، وعينيه المتقدتين . وفجأة غمر الشارع الخالي ، والسهول المترامية دوي عنيف مثل قصف رعد خريفي . جفل م للحظات ونسى دونكي خوتا ، واخذ يبحث عن مصدر الدوي .. انفجر الدوي ثانية اهتز على اثره م ، وشعر بخوف شديد ، وما ان استرجع انفاسه ، حتى قال في نفسه : بالتأكيد او سمع دونكي خوتا مثل هذا الصوت لمد يده بسرعة الى سيفه .. لماذا كان لا يخاف .؟ ما معنى الخوف ؟ وما ان انهى م الكلمات الاخيرة حتى انفجر الدوي بعنف هائل ، ورأى جسما اسطواني الشكل فوق راسه من خلال ضباب شفيف . انقطع الدوي ، وانقشع الضباب بهدوء ، وتجسد الجسم الاسطواني في ضوء الشمس المائلة الى الغروب بلون الفضة المجلية .. تسمر م في مكانه ، وعاوده الخوف بقوة اكثر ، وجلس لا ارادياً ثم تمدد فوق بطنه ، ودحرج جذعه المشلول خارج الطريق وضاع في العشب . دارت الاسطوانة حول م ، وحطت برفق فوق مرتفع في السهل على مبعدة عشرات الامتار من م. كانت الاسطوانة بحجم طائرة صغيرة لكن بدون جناحين ، واشبه شيء بصاروخ . تكور م في مكانه ، واراح وجهه الذي النهب بحمى مفاجئة فوق العشب البارد ، وقال : الهي، ما هذا ! أيكون ذلك لانني فكرت اكثر من اللازم بمغامرات ذاك المعذب المسكين خوتا ..؟ رفع م رأسه ، ورأى الاسطوانة وقد صارت بلون العشب تماما .. وكان من المحال ان يميزها الانسان من احدى التلال الخضراء المنتشرة في المنطقة . انفتح باب بشكل دائري في منتصف جسم الاسطوانة ، واطل جسم اشبه شيء بأخطبوط بحجم قرد ، وبسرعة غريبة قفز فوق الارض ، واقترب من م . احاطت مجموعة اذرع بكتف م الذي اغمي عليه في هذه الاثناء ورفعت جسد م عاليا .. وعندما افاق وجد نفسه في غرفة مختبرية نظيفة امام لوحة عليها مئات الاسلاك ، والازرار ، والساعات الصغيرة ، والاضواء الملونة ، والات دقيقة .. رش الجسم الاخطبوطي الذي ادخل م في الاسطوانة سائلا باردا على وجه م . افاق م اكثر وشعر بانتعاش حاد ، وقوة ورغبة ملحة في المتابعة والاستفسار . رأى مجموعة اجسام باحجام القردة الاعتيادية لها عشر اذرع طويلة ومكسوة بشعر . وذهل م من قوة تلك السيقان التي احس بها قبل ان يغمى عليه . كانت الاذرع تنتهي بأصابع صغيرة حمراء بلون منقار الببغاء . كانت الاذرع تحمل جسدا مخروطيا مكسوا بشعر غزير ، وفي منتصف الجسد عين واحدة تشع بضوء يعلو ويخفت ، وتأخذ احيانا الوانا كثيرة .. انهش السائل م ، ولم يعد يحس بأي خوف ، بل اكثر من هذا ، ان م شعر بأن هذه الكائنات رائعة ، ولطيفة ، وغير مؤذية ... كانت الاجسام تتهامس مع بعضها باصوات تشبه ضربات آلة موسيقية .. ارتاح م فوق مقعده الاسفنجي قبالة اللوحة . لمس احد الاجسام زرا ، وظهرت شاشة بحجم جهاز التلفزيون ، وبضربة خفيفة على زر اخر، ظهرت على الشاشة بجميع اللغات الجملة التالية :

اي من هذه اللغات تجيدها قراءة وكتابة .

وما ان ظهرت اللغة العربية ، حتى اشر م باصبعه الى الحروف، وهز رأسه . اقترب جسم اخر من م ، وسحب ثلاثة اسلاك من اللوحة لف احدها حول رأس م ، ودس النهاية المطاطية للسلك الاخر في اذنه ، بينما ربط نهاية السلك الاخر فوق لسانه .. كان مذاق السلك المربوط بلسان م حلوا ، ولذيذا ، وذا نكهة طيبة مما جعل م يمصه . بعد لحظات ظهرت فوق الشاشة الجملة التالية !

ـ كل ما تفكر به ، او تريد ان تقوله ، او تحدس به يظهر على

الشاشة ، وتتلقى له ردا مكتوبا بسرعة .
اندهش م ، وقال في نفسه : « لا معقول . »

وعلى الشاشة ظهرت كلمة لا معقول .. اراد م ان يضحك ، ظهرت ذبذبات مثل الخيوط البيانية .. قال في نفسه ، لكنني لم اضحك بعد ... اردت ان اضحك .. وقرأ على الشاشة ما قاله مع نفسه . اقترب احد الاجسام ، واخذ رواية دونكي خوتا التي حار م كيف احتفظ بها ، وادخلها الجسم بميكانيكية في آلة بحجم الة جهاز تسجيل ، وفي لحظات ظهرت فوق الشاشة .

ـ هذه الرواية اصلها اسباني ..
ـ هل تعرفون جميع اللغات ..
ـ كل لغة موجودة فوق كوكبكم نعرفها .. هل تجيد لغات اخرى.
ـ قليلا من الانكليزية ، والفرنسية ، والارمنية ، والاشورية، والكردية ..
وبجميع هذه اللغات رحبوا به . وسالهم م من يكونون ، ومن اين جاءوا .
وقرا م فوق الشاشة : نحن من مجموعة الكواكب التي لن تتوصلوا الى اكتشافها حتى بعد مئات السنين . ان اسم كوكبنا ١٨٦٠٩٣٤٥٨٣ ÷ ٣٤٣ x ٥٦٣٤٨ .. انه كوكب بعيد .. ان فهمكم للسرعة ، والزمن ، والتلاشي هزيل .
ـ وما معنى هذه الارقام ؟
ـ نحن نتكلم بالارقام .
ـ الا يمكنك ان تترجم لي الارقام الى اسم ؟. اريد ان اعرف اسم الكوكب .
ـ لا يوجد لها معنى في مفرداتكم ..
ـ ولا حتى في مفردات اللغات المتطورة ؟
ـ اللغة الانكليزية مثلا . لغة فقيرة ، وكذلك بقية اللغات الارضية بالنسبة للغتنا .
ـ كم مرة جئتم الى كوكبنا ؟.
ـ مئات المرات ..
ـ لم ؟
ـ لاسباب علمية .. هل تريد ان ترى بعض احداث كوكبك ؟
قلت في نفسي : « مستحيل .. »
وظهرت على الشاشة ـ ارجوك لا تنفعل .. برفق .. برفق . ان كلمة « المستحيل » مثل الكثير من القضايا سوف تبقى ترافق مفرداتكم مئة سنة اخرى ..
ـ لماذا مئة سنة اخرى ؟
ـ الزمن الذي في اعتقادنا يمكنكم فيه ان تنجزوا اشياء جيدة .

بعد لحظات ظهرت على الشاشة مواكب كبيرة ، وجماهير في ملابس ملونة ، نساء جميلات يحملن باقات كبيرة من زهور البراري ، ورجال بلحى طويلة يلوحون بايديهم ، وفتيات صغيرات يؤدين شعائر دينية ، وهتافات من عشرات الوف الحناجر. فوق محفة فخمة يجلس رجل نحيف جامد الوجه : الموكب يسير وسط زغاريد النساء ، ورقصات الرجال الدينية . يصل الموكب ساحة كبيرة . توضع المحفة بجلال فوق الارض . ما ان يدوس الرجل الارض بقدميه حتى تنحني الظهور ، وتلامس معظم جباه الحضور الارض .. يصعد الرجل الحزين الوجه درجا ، ويتجه الى مرتفع . تتبعه ثلة من الرجال . فوق ارض مرمرية يسيرون خلف الرجل . يقترب الرجل من نصب جداري ويتكلم .. سال سعيد : من يكون هذا الرجل ؟
فاجابت الشاشة بعد ان انقطعت الصور : « انه حمورابي يوم قرا شريعته للشعب .. سجلنا هذا الاحتفال حوالي ١٥٢٠ من تاريخ ارضكم .. »
ـ مستحيل .. مستحيل ..
ـ انس هذه الكلمة . اول مرة جئنا ارضكم كانت خالية من المخلوقات نهائيا ..
ـ لم لا تتصلون بعلماء الدول المتقدمة علميا ؟.
ـ كوكبكم متاخر ولديكم مشاكل صبيانية كثيرة . ربما بعد مئة عام .
ـ لكننا وصلنا القمر ، والمريخ ، والزهرة .
ـ وصلتما قبل ١٨٣٤٩٦٥٧٨٩ سنة ارضية من ظهور الحيوانات فوق كوكبكم .
ـ لماذا لا تغزون ارضنا ؟..
ـ ليست لدينا اية مطامح في عالمكم الصغير ..
ـ هل لديكم مستعمرات في كواكب اخرى ؟.
ـ لدينا اتصال مع الف كوكب ، ولم نجد في قواميس مخلوقاتها هذه الكلمة سوى عندكم ... نحن نلقي بفائض حاجاتنا عبر صواريخ ضخمة الى اجرام اخرى ..
ـ ما هذه الاشياء الفائضة ؟
ـ تحتاجون لمئة سنة او اكثر لتكتشفوها ..
ـ الا يمكن ان افهم ؟..
ـ يمكن اذا بدلنا تكوينك الفسيولوجي كليا . السائل الذي رششناه فوق وجهك مثلا ، يجعلك يقظا وقويا لعشرين سنة مقبلة ... ان افهم عالم كيمائي ارضي لا يستطيع فهم معادلتها ..
ـ الفائض الذي قذفتموه .. ما هو ؟
ـ سائل من ثلاث قطرات تجعل كائنات ذاك الكوكب لا يحسون بالجوع لعشر سنوات ..
ـ مستحيل !.

ـ انتم تقضون معظم سنوات عمركم في النوم والاكل والراحة . ثلاث وجبات تجلسون الى المائدة تثرثرون ، وتشغطون الحساء ، وتمضغون الاكل ، وبعد ساعة من الثرثرة والمضغ تدور رؤوسكم ، فتستلقون لتأخذوا غفوة ، وفي الليل تنامون ست ساعات . هذه نكتة نتندر بها في كوكبنا .. مع اننا لا نعرف معنى للكسل ، لكن اذا تأخر الواحد للحظات مثلا في اداء عمله قلنا له ، تحرك ايها الكائن الارضي ... لو جمعتم ساعات الاستلقاء ، والاكل ، والنوم ، واداء الطقوس الدينية لوجدتم انكم اكسل جميع المخلوقات التي في الكواكب ١٠٠٠،٠٠٠ التي فيها حياة .

ـ وهل حقا توجد حياة في الكوكب ١٠٠٠،٠٠٠ ؟
ـ طبعا .
ـ ولديكم اتصال وزيارات مع الجميع ؟
ـ مع ربع العدد . ثمة كواكب ارقى منا .. نحن نواصل جهودنا.
ـ اسمع ! وانتم الا تنامون مثلنا ؟
ـ ابدا .. النوم مفهوم ارضي .. النوم اكبر تعطيل وتحطيم للقدرات .
ستتغلبون على عدم النوم بعد مئة عام .
ـ الا تحسون بالنوم مطلقا ؟.
ـ اذا احسسنا به ثمة جهاز في تركيبنا يعوضنا عن الحاجة اليه بسرعة ... وبعد صمت طويل جاهد «م» الا يفكر في اي شيء ، وان دار في خلده سؤال ملح : لماذا انتم بهذا الشكل . فجاءه الجواب على الشاشة فورا .
ـ ظروف كوكبنا اوجدت لنا هذه الاشكال . مثلما تبدون لنا في اشكال مضحكة ، كذلك نحن نبدو لكم مضحكين . اذرع كثيرة وقوية

لان طبيعتنا الصعبه والفنية احتاجت الى العمل المستمر والدؤوب . لدينا صلابة ، وتحمل ، وخلود . وصرخ م بفزع ـ الا تموتون !!؟

ـ ابدا .. انتم تشيخون وتموتون عندما تبدأ الغدة الصماء في اجسادكم بفرز هرمون النيموسين .

ـ ولا تسأمون الحياة الطويلة ؟.

ـ اذا سئم الواحد منا يتناول قرصا وينام لعشر ، او عشرين سنة .

ـ دون ان يتعفن !!؟

ـ ابدا .. القرص فيه كل امكانات المحافظة على اجسادنا من التعفن ..

ـ حسن ، اذ كنتم بهذه السرعة من التطور العلمي ، كيف يمكن للذي يفيق بعد عشر سنوات ان يواكب التطورات ؟

ـ تعبأ في رأسه عن طريق آلات معقدة .. بالضبط مثلما تعبأ الاغاني في الاسطوانات .

ـ ما قيمة علم لم يتعب الكائن في تعلمه ؟

ـ اي ضير طالما انه يعرفه ، ويتقنه بعد التعبئة ؟.. انها مسألة وقت .. هل حقا يضير شيئا لو مثلا استطاعت آلة ان تعلمك جميع نظريات عالمكم انشتاين في نصف ساعة ؟. ان الوقت عندكم بوفرة الرز في اسيا ، وبوفرة المعلبات في اوربا ..

ـ هل تأكلون الرز ؟.

ـ ابدا ..

لم يجد م ما يقوله لهم ، فقال بانفعال :

ـ لم انتم بهذا التعقيد ؟

ـ ولم انتم بهذه البساطة ! تأكد عندما تصلون الى نفس تطورنا ستجدون اننا بسطنا كل شيء ..

ـ للمناسبة ما هي لغتكم ؟

ـ نحن تخلصنا من الحروف .. كوكبكم هو الوحيد الذي يستعمل الحروف .

ـ كيف تتفاهمون اذن ؟

ـ بالارقام ..

ـ كيف تقول مثلا انني سعيد .

ـ لا توجد كلمة سعيد في قاموسنا .

ـ لماذا ؟

ـ لاننا سعداء منذ الاف السنين .. هذه الكلمة ارضية بحتة ..

ـ وكلمة شقي ؟

ـ هي الاخرى ارضية .

ـ قل اي شيء بلغتكم ... اي شيء ..

ـ لكنك لا تفهم ..

انفعل م كثيرا ، وتوتر ، فاذا بالشاشة تكتب ، لا حاجة للتوتر، والانفعال ...

ـ انتم تعرفون اصغر حدوساتي .

ـ بل حتى قبل ان تحدسها ..

ـ وي ... وي ... اي الهة انتم !. اكتب لي كلمة ، حب ، في لغتكم ..

ـ الحب كلمة تعود في لغتنا الى ربع مليون سنة . نحن نعيش في حب ازلي .. شيء مهين ومضحك لو قلت لكائن في كوكبي انني احبك .. لان حبي للجميع وبعمق امر مفروغ منه .. نحن لا نستعمل هذه الكلمة .

ـ حسنا .. اكتب كلمة حرب ..

فجأة اطلقت الاجسام الواقفة على طرفي م اصواتا شبيهة بعزف خافت على الة كمان ، وظهرت على الشاشة :

ـ معذرة لم نستطع الا ان نضحك .

ـ وهل ضحكتم فعلا .. اهكذا تضحكون ؟

ـ نعم .

ـ مثل رنين الموسيقى .. لماذا ضحكتم ؟

ـ لكلمة ـ الحرب ـ . في مختبرات اللغات في كوكبنا ، فان اجهزتنا التي تتصل باعداد غفيرة من الكواكب ، تنقل الينا كلمة الحرب من كوكبكم فقط .. انظر ..

وبحركة سريعة وعبر ضغط خفيف على مجموعة ازرار ظهرت على الشاشة لقطات سريعة وواضحة ليوليوس قيصر وهو وسط معركة .. حصن ، رماح ، جنود ، قرقعة سيوف ، جثث ، دلال ، نيران . وقفة . هجمة مغولية عنيفة .. ذبح ، اطفال ، نساء ، شيوخ يهربون .. حوافر جياد تدوس على الجثث ... وقفة . لقطات سريعة من هجوم المدفعية الكلاسيكية .. نابليون يرسل نظراته النارية من فوق حصانه .. اشتعال غابات .. وقفة .. لقطات من الحرب العالمية الاولى ، والثانية ، وحرب كوريا ، وفيتنام .

قال م صارخا : ـ كفى ! ارجوكم ! .

توقفت الصور فوق الشاشة ، وظهرت الكلمات التالية :

ـ كان هذا مونتاجا سريعا للحروب التي صورناها على كوكبكم .. مثل هذه المجازر المضحكة توجد على كوكبكم فقط ..

ـ حبذا لو اهديتم جميع هذه التسجيلات لكوكبنا .

ـ ربما ، يوم نجد لغة مشتركة بيننا .. بعد مئة سنة .. نهديها لاجيالكم المقبلة .. سوف يتسلى بها اطفالكم مثلما يتسلون بافلام الكارتون ..

ـ هل لديكم تسجيلات لجميع احداث كوكبنا ؟

ـ اجل .. منذ الخليقة ، وحتى الان .

اراد م ان يقول : « هل ستاخذونني معكم ، ام ستتركونني » .. وجاءه الجواب :

ـ سوف نتركك الان .

ـ والى اين تتجهون ؟

ـ بعد ربع ساعة سوف نكون فوق كوكب عطارد ، ونميل الى الكواكب اللامرئية ، وفي الليل نكون في بيوتنا .. وبدهشة مجنون قال م ، بعد ربع ساعة فوق كوكب عطارد .؟ مستحيل !..

ـ يمكنكم بعد مئة سنة وعبر عمل متواصل ان تصلوا كوكبنا ..

كان الوقت ليلا عندما انزلوا م برفق من الاسطوانة ، دون ان يهمسوا ولو بنامه .. ركض م عشرات الامتار ، وعندما التفت الى الخلف رأى ضوءا صغيرا يرتفع ويذوب في السماء اللامتناهية ..

وقفز م في اخر سيارة متوجهة الى المدينة .. كان ما زال يحس بانتعاش قوي ، وتذكر انه نسي رواية دونكي خوتا داخل تلك الاسطوانة المعقدة ...

كركوك ـ العراق

مكتبة النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .